والحوت : نوع من السمك معروف ، وفي بعض البلاد يُطلقون على كل سمك حُوتاً ، وقد أعدُّوه للأكل إذا جاءوا أثناء السير ، وكان الفتى يحمله وهو مشوى فى مكتل[1] .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) ﴾ [الكهف] أى : خرج الحوت المشوى من المكتل ، وتسرَّب نحو البحر ، والسَّرَب : مثل النفق أو السرداب ، أو هو المنحدر ، كما نقول : تسرب الماء من القرْبة مثلاً ؛ ذلك لأن مستوى الماء فى القرْبة أعلى فيتسرَّب منها ، وهَذه من عجائب الآيات أن يقفز الحوت المَشوىّ ، وتعود له الحياة ، ويتوجَّه نحو البحر ؛ لأنه يعلم أن الماء مسكنه ومكانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) ﴾

أى : جاوزا فى سيرهما مجمع البحرين ومكان الموعد ، قال موسى ـ عليه السلام ـ لفتاه : أحضر لنا الغداء فقد تعبنا من السفر ، والنَّصَب : هو التعب .

فمعنى ذلك أنهما سارا حتى مجمع البحرين ، ثم استراحا ، فلما جاوزا هذا المكان بدا عليهما الإرهاق والتعب ؛ لذلك طلب موسى الطعام . وهنا تذكَّر الفتى ما كان من نسيان الحوت .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) ﴾

---

(١) المِكْتل : الزِّنبيل الذى يُحمل فيه التمر أو العنب إلى الجرين . وقيل : المكتل شبه الزنبيل يسع خمسة عشر صاعاً . [ لسان العرب ـ مادة : كتل ] .

هذا كلام فتى موسى : أرأيت : أخبرنى إذْ لجأنا إلى الصخرة عند مَجْمع البحرين لنستريح ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. (٦٣)﴾ [الكهف] ونلحظ أنه قال هنا ( نَسيتُ ) وقال فى الآية السابقة ﴿نَسِيَا .. (٦١)﴾ [الكهف] ذلك لأن الأولى إخبار من الله ، والثانية كلام فتى موسى .

فكلام الله تبارك وتعالى يدلُّنا على أن رئيساً متبوعاً لا يترك تابعه ليتصرف فى كلِّ شىء ؛ لأن تابعه قد لا يهمه أمر المسير فى شىء ، وقد ينشغل ذِهْنه بأشياء أخرى تُنسِيه ما هو منُوط به من أمر الرحلة .

ثم يعتذر الفتى عما بَدَر منه من نسيان الحوت ، ويقول : ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ .. (٦٣)﴾ [الكهف] فالشيطان هو الذى لعب بأفكاره وخواطره حتى أنساه واجبه ، وأنساه ذكْر الحوت .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)﴾ [الكهف] أى : اتخذ الحوتُ طريقه فى البحر عَجَباً ، فى الآية السابقة قال ﴿سَرَبًا (٦١)﴾ [الكهف] وهذه حال الحوت ، وهنا يقول ( عَجَباً ) لأنه يحكى ما حدث ويتعجب منه ، وكيف أن الحوت المشوىّ تدبّ فيه الحياة حتى يقفز من المكتل ، ويتجه صَوْبَ الماء ، فهذا حقاً عجيبة من العجائب ؛ لأنها خرجتْ عن المألوف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)﴾

أى : قال موسى ـ عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ .. (٦٤)﴾ [الكهف] أى : نطلب ، فهذا المكان الذى فُقِد فيه الحوت هو المكان المراد ، فكأن الحوت كان أعلم بالموعد من موسى ، وهكذا عُرف

عنوان المكان ، وهو مَجْمع البحرين ، حيث يلتقى البحران فيصيران بحراً واحداً .

وهذه الصورة لا توجد إلاَّ فى مسرح بنى إسرائيل فى سيناء . وهناك خليج العقبة وخليج السويس ، ويلتقيان فى بحر واحد عند رأس محمد[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الكهف] أى : عادا على أثر الأقدام كما يفعل قَصَّاصُو الأثر ، ومعنى ﴿ قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الكهف] أى : بدقة إلى أنْ وصلاً إلى المكان الذى تسرَّب فيه الحوت ، وهو الموعد الذى ضربه الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ حيث سيجد هناك العبد الصالح .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

سبق أن تحدثنا عن العبودية ، فإنْ كانت لله تعالى فهى العزّ والشرف ، وإنْ كانت لغير الله فهى الذلُّ والهوان ، وقلنا : إن النبى ﷺ لم يأخذ حَظْوة الإسراء والمعراج إلا لأنه عبد لله ، كما قال سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

كما أن العبودية لله يأخذ فيها العبد خَيْر سيده ، أما العبودية للبشر فيأخذ السيد خَيْر عبده .

---

(١) قال قتادة عن مجمع البحرين : هو بحر فارس والروم . وقيل : هما بحر الأردن وبحر القلزم ( أى : خليج السويس ) . وقيل : مجمع البحرين عند طنجة ، قاله محمد بن كعب . [ تفسير القرطبى ٤١٦٢/٥ ] .

ثم وصف الحق سبحانه هذا العبد الصالح ، فقال : ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا .. (٦٥)﴾ [الكهف] وقد تكلم العلماء فى معنى الرحمة هنا ، فقالوا : الرحمة وردتْ فى القرآن بمعنى النبوة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] فكان رَدُّ الله عليهم : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ..(٣٢)﴾ [الزخرف]

أى : النبوة ، ومطلق الرحمة تأتى على يد جبريل - عليه السلام - وعلى يدِ الرسل ، أما هذه الرحمة ، فمن عندنا مباشرة دون واسطة الملك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿آتَيْنَاهُ .. (٦٥)﴾ [الكهف] نحن ، وقال : ﴿مِّنْ عِندِنَا .. (٦٥)﴾ [الكهف] فالإتيان والعنْدية من الله مباشرة .

ثم يقول بعدها : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف] أى : من عندنا لا بواسطة الرسل ؛ لذلك يسمونه العلم اللدنى ، كأنه لا حرجَ على الله تعالى أن يختار عبداً من عباده ، ويُنعِم عليه بعلم خاص من وراء النبوة .

إذن : علينا أنْ نُفرِّق بين علم وفيوضات تأتى عن طريق الرسول وتوجيهاته ، وعلم وفيوضات تأتى من الله تعالى مباشرة لمن اختاره من عباده ؛ لأن الرسول يأتى بأحكام ظاهرية تتعلق بالتكاليف : افعل كذا ولا تفعل كذا ، لكن هناك أحكام أخرى غير ظاهرية لها عِلَل باطنة فوق العِلل الظاهرية ، وهذه هى التى اختصَّ الله بها هذا العبدَ الصالح ( الخضر ) كما سماه النبى ﷺ .

والدليل على ذلك أن النبى يأتى بأحكام تُحرِّم القتل وتحرِّم إتلاف مال الغير ، فأتى الخضر وأتلف السفينة وقتل الغلام ، وقد اعترض موسى - عليه السلام - على هذه الأعمال ؛ لأنه لا علْمَ له بعلتها ، ولو أن موسى - عليه السلام - علم العلّة فى خَرْق السَّفينة لبادر هو إلى خرقها .

إذن : فعلْم موسى غير علم الخضر ؛ لذلك قال له : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الكهف]

فهذا علْم ليس عندك ، فعلْمى من كيس الولاية ، وعلمك من كيس الرسل ، وهما فى الحقيقة لا يتعارضان ، وإنْ كان لعلم الولاية علَل باطنة ، ولعلم الرسالة علَل ظاهرة .

ثم يقول تعالى :

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾

كان موسى عليه السلام يُعلِّمنا أدب تلقِّى العلم وأدب التلميذ مع معلمه ، فمع أن الله تعالى أمره أن يتبع الخضر ، فلم يقُل له مثلاً : إن الله أمرنى أن أتبعك ، بل تلطَّف معه واستسمحه بهذا الأسلوب ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف]

والرشد : هو حُسْن التصرّف فى الأشياء ، وسداد المسلك فى علة ما أنت بصدده ، وسبق أن قلنا : إن الرُّشْد يكون فى سنِّ البلوغ ، لكن لا يعنى هذا أن كل مَنْ بلغ يكون راشداً ، فقد يكون الإنسان بالغاً وغير راشد ، فقد يكون سفيهاً .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن اليتامى قال : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] أى : اختبروهم ، واختبار اليتيم يكون حال يُتْمه وهو ما يزال فى كفالتك ، فعليك أنْ تكلّفه بعمل ما لإصلاح حاله ، وتعطيه جزءاً من ماله يتصرَّف فيه تحت عينك وفى رعايتك ، لترى كيف سيكون تصرفه .

عليك أنْ تحرص على تدريبه لمواجهة الحياة ، لا أن تجعله في مَعْزل عنها إلى أنْ يبلغَ الرشْد ، ثم تدفع إليه بماله فلا يستطيع التصرف فيه لعدم خبرته ، وإنْ فشل كانت التجربة في ماله والخسارة عليه .

إذن : فاختبار اليتيم يتمُّ وهو ما يزال في ولايتك ، وتحت سمعك وبصرك رعاية لحقه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] وهو سن البلوغ ، ولم يقُلْ بعدها : فادفعوا إليهم أموالهم ؛ لأن بعد البلوغ شرطاً آخر ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] فعلى الوصيّ أنْ يُراعيَ هذا الترتيب :

أنْ تُراعي اليتيم وهو تحت ولايتك ، وتدفع به في مُعتَرك الحياة وتجاربها حتى يتمكّن من مواجهة الحياة ولا يتخبط في ماله لعدم تجربته وخبرته ، فإنْ علمت رُشْده بعد البلوغ فادفع إليه بماله ليتصرّف فيه ، فإنْ لم تأنسْ منه الرشد وحُسْن التصرف فلا تترك له المال يُبدّده بسوء تصرفه .

لذلك يقول تعالى في هذا المعنى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [النساء] ولم يقُلْ : أموالهم ؛ لأن السفيه لا مالَ له حال سَفَهه ، بل هو مالكم لِتُحسِنوا التصرف فيه وتحفظوه لصاحبه لحين تتأكدون من رُشْده .

إذن : فالرشد الذي طلبه موسى من العبد الصالح هو سداد التصرف والحكمة في تناول الأشياء ، لكن هل يعني ذلك أن موسى ـ عليه السلام ـ لم يكن راشداً ؟ لا ، بل كان راشداً في مذهبه هو كرسول ، راشداً في تبليغ الأحكام الظاهرية .

أما الرشد الذي طلبه فهو الرشد في مذهب العبد الصالح ، وقد دلّ هذا على أنه طلب شيئاً لم يكن معلوماً له ، وهذا لا يقدح في

مكانة النبوة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء]

وقال للنبى ﷺ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً (١١٤)﴾ [طه]

لذلك يقول الشاعر :

كُلّما ازْدَدْتُ عُلوماً ... زِدْتُ إيقَاناً بجهْلي

لأن معنى أنه ازداد علْماً اليوم أنه كان ناقصاً بالأمس ، وكذلك هو ناقص اليوم ليعلمَ غداً .

والإنسان حينما يكون واسعَ الأفق محباً للعلم ، تراه كلما علم قضية اشتاق لغيرها ، فهو فى نَهمٍ دائم للعلم لا يشبع منه ، كما قال ﷺ : « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال »[1] .

والشاعر الذى تنبَّه لنفسه حينما دَعَتْه إلى الغرور والكبرياء والزَّهْو بما لديه من علم قليل ، إلا أنه كان متيقظاً لخداعها ، فقال :

قالتِ النفسُ قَدْ علِمْتُ كَثيراً ... قُلْتُ هَذَا الكثيرُ نَزْعٌ يسيرُ

ثم جاء بمثل توضيحى :

تملأُ الكُوزَ غَرْفَةٌ مِنْ مُحِيط ... فَيَرى أنَّهُ المحيطُ الكَبِيرُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧)﴾

هنا يبدأ العبد الصالح يُملى شروط هذه الصُّحْبة ويُوضِّح لموسى ـ عليه السلام ـ طبيعة عِلْمه ومذهبه ، فمذهبُك غير مذهبى ، وعلمى من كيس غير كيسك ، وسوف ترى منى تصرفات لن تصبر عليها ؛

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/٢٢٣) ( حديث ١٠٣٨٨ ) من حديث عبد الله بن مسعود ، قال الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ( ١/١٣٥ ) : « فيه أبو بكر الداهرى وهو ضعيف » .

لأنه لا علْم لك ببواطنها ، وكأنه يلتمس له عُذْراً على عدم صبْره معه ؛ لذلك يقول :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

فلا تحزن لأنى قُلت : لن تستطيع معى صبراً ؛ لأن التصرفات التى ستعترض عليها ليس لك خُبر بها ، وكيف تصبر على شىء لا علْمَ لك به ؟

ونلحظ فى هذا الحوار بين موسى والخضر[1] ـ عليهما السلام ـ أدبَ الحوار واختلافَ الرأى بين طريقتين : طريقة الأحكام الظاهرية ، وطريقة ما خلف الأحكام الظاهرية ، وأن كلاً منهما يقبَل رأىَ الآخر ويحترمه ولا يعترض عليه أو يُنكره ، كما نرى أصحاب المذاهب المختلفة ينكر بعضهم على بعض ، بل ويُكفِّر بعضهم بعضاً ، فإذا رأوْا مثلاً عبداً من عباد الله اختاره الله بشىء من الفيوضات ، فكانت له طريقة وأتباع نرى مَنْ ينكر عليه ، وربما وصل الأمر إلى الشتائم والتجريح ، بل والتكفير .

لقد تجلَّى فى قول الخضْر : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الكهف] مظهر من مَظاهر أدب المعلِّم مع المتعلِّم ، حيث احترمَ رأيه ، والتمس له العُذْر إن اعترض عليه ، فلكُلٍّ منهما مذهبه الخاص ، ولا يحتج بمذهب على مذهب آخَر .

فماذا قال المتعلم بعد أن استمع إلى هذه الشروط ؟

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾

---

(١) قال مجاهد : سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء » ذكره القرطبى فى تفسيره ( ٥/٤١٦٩ ) .

أى : أنا قابل لشروطك أيُها المعلم فاطمئن ، فلن أجادلك ولن أعارضك فى شىء . وقدّم المشيئة فقال : ﴿إن شاء الله .. ﴿٦٩﴾ [الكهف] ليستميله إليه ويُحنّن قلبه عليه ﴿صابراً .. ﴿٦٩﴾ [الكهف] على ما تفعل مهما كان ﴿ولا أعصى لك أمراً ﴿٦٩﴾ [الكهف] وهكذا جعل نفسه مأموراً ، فالمعلم آمر ، والمتعلّم مأمور .

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

وهذا تأكيد من الخضر لموسى ، وبيان للطريقة التى يجب اتباعها فى مصاحبته : إنْ تبعتنى فلا تسألنى حتى أخبرك ، وكأنه يُعلّمه أدب تناول العلم والصبر عليه ، وعدم العَجلة لمعرفة كل أمر من الأمور على حدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾

( فَانْطَلَقَا ) سارا معاً ، حتى ركبا سفينة ، وكانت مُعدّة لنقل الركاب ، فما كان من الخضر إلا أنْ بادر إلى خَرْقها وإتلافها ، عندها لم يُطق موسى هذا الأمر ، وكبُرت هذه المسألة فى نفسه فلم يصبر عليها فقال : ﴿أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً ﴿٧١﴾ [الكهف]

أى : أمراً عجيباً أو فظيعاً . ونسى موسى ما أخذه على نفسه من طاعة العبد الصالح وعدم عصيانه والصبر على ما يرى من تصرفاته .

كأن الحقَّ - تبارك وتعالى - يريد أن يُعلِّمنا أن الكلام النظرى شىء ، والعمل الواقعى شىء آخر ، فقد تسمع من أحدهم القول الجميل الذى يعجبك ، فإذا ما جاء وقت العمل والتنفيذ لا تجد شيئاً ؛ لأن الكلام قد يُقَال فى أول الأمر بعبارة الأريحية ، كمن يقول لك : أنا رَهْن أمرك ورقبتى لك ، فإذا ما أحوجك الواقع إليه كنت كالقابض على الماء لا تجد منه شيئاً .

ونلحظ هنا أن موسى - عليه السلام - لم يكتف بالاستفهام : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا .. (٧١) ﴾ [الكهف] بل تعدَّى إلى اتهامه بأنه أتى أمراً منكراً فظيعاً ؛ لأن كلام موسى النظرى شىء ورؤيته لخرق السفينة وإتلافها دون مبرر شىء آخر ؛ لأن موسى استحضر بالحكم الشرعى إتلاف مال الغير ، فضلاً عن إغراق ركاب السفينة ، فرأى الأمر ضخماً والضرر كبيراً ، هذا لأن موسى يأخذ من كيس والخضر يأخذ من كيس آخر .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) ﴾

وهذا درس آخر من الخضر لموسى - عليهما السلام - يقول : إن كلامى لك كان صادقاً ، وقد حذرتُك أنك لن تصبرَ على ما ترى من تصرفاتى ، وها أنت تعترض علىَّ ، وقد اتفقنا وأخذنا العهد ألاَّ تسألنى عن شىء حتى أُخبرك أنا به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) ﴾

يعتذر موسى - عليه السلام - عما بدر منه لمعلمه ، ويطلب منه

مسامحته وعدم مؤاخذته ﴿وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)﴾ [الكهف] أي: لا تُحمِّلني من أمر اتباعك عُسْراً ومشقة. فسامحه الخضر وعاود السير.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤)﴾

تلاحظ أن الاعتداء الأول من الخضر كان على مال أتلفه، وهنا صعَّد الأمر إلى قَتْل نفس زكية دون حق، فبأيِّ جريرة يُقتل هذا الغلام الذي لم يبلغ رُشْده؟ لذلك قال في الأولى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)﴾ [الكهف] أي عجيباً أما هنا فقال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤)﴾ [الكهف] أي: مُنكَراً؛ لأن الجريمة كبيرة.

والنفس الزكية: الطاهرة الصافية التي لم تُلوِّثها الذنوب ومخالفة التكاليف الإلهية.

وكذلك يأتي الرد من الخضْر مخالفاً للرد الأول، ففي المرة الأولى قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢)﴾ [الكهف] أي: قلت كلاماً عاماً، أما هنا فقال:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥)﴾

وأكّدها وأراده بالكلام أي: قُلْت لك أنت.

ثم بعد المرة الثانية التي يقاطع فيها موسى مُعلّمه الخضر يأخذ عهداً جديداً على نفسه.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦)﴾

وهكذا قطع موسى ـ عليه السلام ـ الطريق على نفسه، وأعطى

لها فرصة واحدة يتم بعدها الفراق ؛ لذلك في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « رحمنا الله ، ورحم أخي موسى لو صبر لعرفنا الكثير »[1] .

فهذه هي الثالثة ، وليس لموسى عذر بعد ذلك .

ومعنى : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الكهف] أي : قد فعلت معي كل ما يمكن فعله ، وليس لي عُذْر بعد ذلك .

ثم يقول سبحانه :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾

استطعم : أي طلب الطعام ، وطلَبُ الطعام هو أصدق أنواع السؤال ، فلا يسأل الطعام إلا جائع محتاج ، فلو سأل مالاً لقلنا : إنه يدخره ، إنما الطعام لا يعترض عليه أحد ، ومنْعُ الطعام عن سائله دليل بُخْل ولُؤْم متأصل في الطباع ، وهذا ما حدث من أهل هذه القرية التي مرّا بها وطلبا الطعام فمنعوهما .

والمتأمل في الآية يجد أن أسلوب القرآن يُصوّر مدى بُخْل هؤلاء القوم ولُؤْمهم وسُوء طباعهم ، فلم يقُلْ مثلاً : فأبوا أن يطعموهما ،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ( ٢٣٨٠ ) كتاب الفضائل من حديث أبي بن كعب بلفظ : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لولا أنه عجل لرأى العجب ، ولكنه أخذته ذمامة من صاحبه » ، وفي لفظ آخر له أيضاً ولأحمد ( ١٢١/٥ ) : « يرحم الله موسى ، لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما » .

بل قال : ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] وفرق بين الإطعام والضيافة ، أبوا الإطعام يعنى منعوهما الطعام ، لكن أبوا أن يُضيِّفوهما ، يعنى كل ما يمكن أنْ يُقدَّم للضيف حتى مجرد الإيواء والاستقبال ، وهذا مُنْتهى ما يمكن تصوُّره من لُؤْمْ هؤلاء الناس .

وتلحظ أيضاً تكرار كلمة ( أهْل ) فلما قال : ﴿ أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] فكان المقام للضمير فيقول : استطعموهم ، لكنه قال : ﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] لأنهم حين دخلوا القرية : هل قابلوا كل أهلها ، أم قابلوا بعضهم الذين واجهوهم أثناء الدخول ؟

بالطبع قابلوا بعضهم ، أما الاستطعام فكان لأهل القرية جميعاً ، كأنهما مرّا على كل بيت فى القرية وسألا أهلها جميعاً واحداً تلو الآخر دون جدوى ، كأنهم مجمعون على البُخْل ولُؤْم الطباع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف]

أى : لم يلبثا بين هؤلاء اللئام حتى وَجَدا جداراً يريد أنْ ينقضّ ، ونحن نعرف أن الإرادة لا تكون إلا للمفكر العاقل ، فإنْ جاءت لغير العاقل فهى بمعنى : قَرُب . أى : جداراً قارب أنْ ينهار ، لما نرى فيه من علامات كالتصدُّع والشُّروخ مثلاً .

وهذا الفهم يتناسب مع أصحاب التفكير السطحى وضيِّقى الأفق ، أما أصحاب الأفق الواسع الذين يعطون للعقل دوره فى التفكير والنظر ويُدقِّقون فى المسائل فلا مانع لديهم أنْ يكونَ للجدار إرادة على أساس أن لكل شىء فى الكون حياةً تناسبه ، ولله تعالى أن يخاطبه ويكون بينهما كلام .

ألم يَقُل الحق سبحانه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩) ﴾ [الدخان]

فإذا كانت السماء تبكى فقد تعدَّتْ مجرد الكلام ، وأصبح لها أحاسيس ومشاعر ، ولديها عواطف قد تسمو على عواطف البشر ، فقوله : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩) ﴾ [الدخان] دليل على أنها تبكى على فَقْد الصالحين .

وقد سُئِل الإمام على - رضى الله عنه - عن هذه المسألة فقال : « نعم ، إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء وموضع فى الأرض ، أما موضعه فى الأرض فموضع مُصلاَّه ، أما موضعه فى السماء فهو مصعد عمله »[(١)] .

وهذا دليل انسجام العبد المؤمن مع الكَوْن من حوله ، فالكون ساجد لله مُسبِّح لله طائع لله يحب الطائعين وينبُو بالعاصين ويكرههم ويلعنهم ؛ لذلك العرب تقول : ( نَبَا به المكان ) أى : كرهه لأنه غير منسجم معه ، فالمكان طائع وهو عاص ، والمكان مُسبِّح وهو غافل .

وعلى هذا الفهم فقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ .. (٧٧) ﴾ [الكهف] قول على حقيقته .

إذن : فهذه المخلوقات لها إحساس ولها بكاء ، وتحزن لفقد الأحبة ، وفى الحديث أن النبى ﷺ قال : « إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىَّ قبل أن أبعث »[(٢)] .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره ( ١٤٢/٤ ) وعزاه لابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب بلفظ : « إنه ليس من عبد إلا له مصلى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على رضى الله عنه ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩) ﴾ [الدخان] » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ( ٥/ ٨٩ ، ٩٥ ) ، ومسلم فى صحيحه ( ٢٢٧٧ ) كتاب الفضائل من حديث جابر بن سمرة .